العلَّامة السائح علي حسين وجهوده في خدمة التّصوف السُّنِّي
كتابه لمحات من التصوف وتاريخه أنموذجا

أد. صالح محمد العفشوك
المعهد العالي للتقنيات الهندسية - طرابلس

استلمت الورقة بتاريخ 2024/07./12، وقبلت بتاريخ 2024/07/25، ونشرت بتاريخ 2024/08/01

الملخص

الملخص
يسعى هذا البحث إلى إظهار جهود العلَّامة الدكتور السايح علي حسين في التصنيف حول التصوف ونشأتِه وموقف الفقهاء منه، والوقوف على معنى التصوف السُنِّي-في رأي المؤلف-وأهم مصادره، من خلال كتابه "لمحات من التصوف وتاريخه"، وإبراز قيمته العلمية؛ تحقيقا وتأريخا. وستكون الدراسة في إطار المنهج الوصفي وإجراءاته المتمثلة في استقراء المادة وجمعها، وترتيبها وتصنيفها، وتحليلها وشرحها، ومقارنتها وموازنتها، واستخلاص النتائج منها.
وقد جاء البحث في مقدمة، وتمهيد تضمن التعريف بالمؤلف وبيان مكانته العلمية، تَلَتْهُ ثلاثة مطالب؛ حوى المطلب الأول منها: الحديث عن القيمة العلمية لكتاب "لمحات من التصوف وتاريخه"، من خلال بعض الوقفات المهمة في مباحثه، وهذا ما دفع الباحث إلى الولوج إلى المطلب الثاني؛ الذي تناول إظهار رأي المؤلف في التصوف ونشأته وموقف الفقهاء منه، ثم جاء المطلب الثالث؛ لبيان معنى التصوف السُنِّي-حسب رأي المؤلف-وأهم مصادره، ثم كان مسكُ التَّمام في خاتمة؛ تناولت أبرز النتائج والتوصيات التي وصل إليها الباحث.

Summary
This research seeks to highlight the efforts of the scholar Dr. Al-Sayeh Ali Hussein in classifying Sufism, its origins, and the position of jurists toward it. It aims to explore the meaning of Sunni Sufism—according to the author's opinion—and its most important sources, as presented in his book "Glimpses of Sufism and Its History," while also emphasizing its scientific value. The study will employ a descriptive approach, which includes procedures for extrapolating and collecting material, arranging and classifying it, analyzing and explaining it, comparing and balancing it, and drawing conclusions.
The research consists of an introduction and a preface that provide an overview of the author and a statement of his scientific standing, followed by three main sections. The first section discusses the scientific value of the book "Glimpses of Sufism and Its History" through some key points in its discussions. This leads to the second section, which presents the author's views on Sufism, its origins, and the stance of jurists regarding it. The third section explains the meaning of Sunni Sufism—according to the author's opinion—and its most important sources. Finally, the conclusion discusses the most prominent results and recommendations reached by the researcher.

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا ونبيّنا وقدوتنا رسول الله، محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه واتبع هداه، أما بعد:

فإن خدمة التراث الإسلامي من أجَلّ الأعمال التي تَتشوَّف إليها هِمَمُ الباحثين، وتصبو إليها آمالهم، ولا غرو؛ لِمَا يُفسَح لهم من بركات النظر في عيون ودرر المسائل، ومطالعةٍ لتراجم الأفذاذ الأفاضل؛ ممّن استُحفظوا على ميراث النبوة؛ فكانوا عليه خير أمناء، وأفنوا أعمارهم في العلم والتعليم والتحقيق والتأليف؛ ابتغاء مرضاة الله، ونُصرةِ الإسلام وخدمة أهله، وهذا من أكبر الحوافز التي تدفعُ بنا نحن طلبةَ العلم إلى أن نقتفي أثرهم، ونستلهم مِن دَلِّهم وسَمتِهم؛ فنُفِيدَ من علمهم، ونأنس بعبق سيرتهم؛ عَلَّ الله أن يجعلنا من حزبهم، ويميتنا على طريقتهم، ويحشرنا في زمرتهم تحت لواء سيد الأولين والآخرين، نبيّنا محمد عليه أكمل الصلاة وأزكى التسليم.

ثم إن الله –تعالى-إذا قدّر لعبده تحصيلَ أمر؛ هيأ له الأسباب المُؤَدّية إليه والمُعينة عليه، ومن هنا جاءت هذه السانحة للمشاركة في المؤتمر الدولي الموسوم بـــ "جهود علماء ليبيا في خدمة علوم الشريعة"، الذي تنظمه واحدة من كبرى الصروح العلمية في بلادنا، بل في غيرها من مؤسسات العلوم الشرعية والإنسانية في عالمنا الإسلامي؛ ألا وهي أكاديمية الدراسات العليا-فرع مصراتة، زادها الله تألقا ونجاحا، وأسبغ على القائمين عليها والدارسين بها نِعَمًا كثيرةً وتوفيقا وصلاحا.

ولمّا اطلعت على المطوية التي أعدتها اللجنة العلمية الموقرة جنحت نفسي دون اختيار مني إلى أحد الموضوعات المرشحة للبحث والدراسة ألا وهو "جهود علماء ليبيا في خدمة التصوف والسلوك"، وحدّثتني بأن أخوض غماره، مستعينا بالله في الوقوف على شيء من معالمه وأسراره؛ مُقتصدا بين الغالي فيه والجافي عنه؛ إذ هو مَعَ دقّته، والمزالق المحفوفة بدروب دراسته، مَعْلَمٌ نفيسٌ مِن معالم العلوم الشرعية المتعلقة بتزكية النفوس وتهذيبها والارتقاء بها في معارج الكمالات وفق القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، مُحاوِلا إبراز جهود أحد العلماء الحذّاق الموسوعيين المعاصرين في بلادنا؛ ألا وهو "الأستاذ الدكتور السائح علي حسين" –رحمه الله رحمة واسعة-كيف لا، وهو من الأفذاذ الذين جمعوا بين العلم والباع الطويل في التدريس والدعوة، وكرّسوا حياتهم وزهرة أيامهم في خدمة علوم الشريعة عموما، ودراسة التصوف والسلوك خصوصا؛ دراسة وتحقيقا، وعنايةً بأبوابه ومسائله، ومناقشتها وتهذيبها وفق القرآن وصحيح السنة، والآثار الواردة عن الصحابة والتابعين، والأخيار من هذه الأمة.

وما يميز التراث الذي تركه الأستاذ الدكتور السائح علي حسين –أيضا-أنه كتبه عن خبرة بأحوال المجتمع الليبي من خلال تدرجه بالعمل الإداري الذي فسح له الاختلاط بأصناف الناس وألوانهم، بالإضافة إلى خبرته التعليمية عبر سنوات طويلة قضاها في التدريس بكلية الدعوة الإسلامية؛ فكان رحمه الله لا يكتب إلا بعد سبر المسائل وتتبع أغوارها في مصادرها الأصلية ومناقشتها مع طلابه وزملائه في حقل التدريس، ومن هنا تشكلت ملامح كتاب "لمحات من التصوف وتاريخه"، الذي هو محل هده الدراسة المتواضعة-بمشيئة الله جلّ وعلا-.

ويسعى البحث إلى جملة من الأهداف أهمها:

- إبراز القيمة العلمية لكتاب "لمحات من التصوف وتاريخه"، من خلال بعض الوقفات المهمة في مباحثِه.
- إظهار رأي المؤلف في التصوف ونشأتِه وموقف الفقهاء منه.
- الوقوف على معنى التصوف السُنِّي-في رأي المؤلف-وأهم مصادره.

هذا، يمكن رد اختيار الموضوع إلى الأسباب الآتية:

- إسهام المؤلف في التأليف في مجال التصوف والسلوك.
- آراء المؤلف العلمية حول التصوف والسلوك.
- جهود المؤلف في بيان التصوف الموافق للشريعة.

وستكون الدراسة في إطار المنهج الوصفي وإجراءاته المتمثلة في استقراء المادة وجمعها، وترتيبها وتصنيفها، وتحليلها وشرحها، ومقارنتها وموازنتها، واستخلاص النتائج منها.

وقد جاء البحث في مقدمة، وتمهيد تضمن التعريف بالمؤلف وبيان مكانته العلمية، تَلَتْهُ ثلاثة مطالب؛ حوى المطلب الأول منها: الحديث عن القيمة العلمية لكتاب "لمحات من التصوف وتاريخه"، من خلال بعض الوقفات المهمة في مباحثه، وهذا ما دفع الباحث إلى الولوج إلى المطلب الثاني؛ الذي تناول إظهار رأي المؤلف في التصوف ونشأته وموقف الفقهاء منه، ثم جاء المطلب الثالث؛ لبيان معنى التصوف السُنِّي-حسب رأي المؤلف-وأهم مصادره، ثم كان مسكُ التَّمام في خاتمة؛ تناولت أبرز النتائج والتوصيات التي وصل إليها الباحث.

ولا يَعلمُ الباحث دراسةً سابقة تناولت هذا الموضوع محلَّ البحث.

وقد كان كتاب "لمحات من التصوف وتاريخه"، العمدةَ في مصادر هذه الدراسة وعليه مدارها؛ بالإضافة إلى أمهات كتب التصوف والسلوك الواردة فيه، وغيرها من المصادر، وفق ما هو مدون في ثَبَتِ المصادر والمراجع.

وأسأل الله -جلّ وعلا-التوفيق والسداد والهُدى والرشاد، وأن يجزي خيرا كل من أسهم وأعان على كتابة هذا العمل المتواضع وإن بشطر كلمة أو دعاء بظهر الغيب.

والشكر موصول للأساتذة الأجلاء القائمين على هذا المؤتمر المبارك، على صبرهم وتَفانيهم في خدمة العلم وطلبته؛ تقبّل الله منهم.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ونبينا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجه واتبع هداه إلى يوم الدين.

تمهيد

التعريف بالأستاذ الدكتور السائح علي حسين (رحمه الله)

هو الأستاذ الدكتور السائح علي حسين الفقيه، من مواليد قبيلة الكرارتة بمسلاتة سنة 1936م.

وعلى الرغم من صعوبة الحياة فقد كافح والده ــ رحمه الله ــ كفاحا مريرا على تعليم أبنائه الأربعة، فتلقّى الأستاذ السايح تعليمه الأوليَّ في بلدة مسلاته ثم ارتحل إلى مدينة طرابلس للأخذ عن علمائها؛ فالتحق بإخوته للدراسة في زاوية ميزران، وأحمد باشا، سنة 1952 تقريبا.

ومن ثم سافر إلى القاهرة سنة 1954، حيث تلقّى العلوم على أيدي علماء الأزهر فترة طويلة استغرقت عقدي الخمسينيات والستينيات؛ إذ كانت القاهرة مفعمة بكتابات أعلامها المشاهير ومعاركهم الأدبية، من أمثال عباس محمود العقاد، وأحمد شاكر، وطه حسين، والزيات وأقرانهم وتلاميذهم.

وفي المرحلة الجامعية اختار كلية اللغة العربية بعد أن طُورت جامعة الأزهر بمقتضى القانون رقم 103 لسنة 1961 وزيدت سنة تمهيدية للطلبة المصريين المسجلين في الجامعة بذلك التاريخ فاختار، هذا النظام على الرغم من طول زمنه.

وقد واجهته عقبة كأداء، وهي قصور مناهج الأزهر عن دراسة اللغات الأجنبية من جهة، وضيق الوضع الاقتصادي عن تعلم اللغة على حسابه من جهة ثانية، ولكنه حاول تعويض هذا النقص بقراءات واسعة مما ترجم من الأدب الغربي في مجالات الرواية والنقد الأدبي، وما كتبه المستشرقون عن الإسلام وحضارته وترجم إلى اللغة العربية، وكان مهتما بمتابعة هذه الكتابات وتحليلها ونقدها، وكتاباته تشهد بهذا.

وبعد تخرجه في كلية اللغة العربية سنة 1965م عاد إلى أرض الوطن ليعمل مدرّسا بمدرسة طرابلس الثانوية، ثم مدرسة سوق الجمعة الثانوية مدة ست سنوات، وفي أثناء ذلك كان متعاونا مع الصحافة بجريدة الحرية لمدة سنتين.

ثم انتقل إلى التخطيط التربوي بوزارة التعليم حتى اختير سنة 1973 رئيسا للجنة الشعبية للتعليم بمحافظة الخمس، فبقي بها إلى أن ألغيت المحافظات سنة 1975 م، فانتدب بعد ذلك مديرا عاما للشؤون الإدارية بوزارة التعليم والتربية، ثم انتدب كاتبا عاما لأمانة التعليم إلى أن ألغيت الوظيفة سنة 1982 م، ولنجاحه في تسيير هذه الوظائف الإدارية فقد ثُبِّت على الدرجة 13 التي نهاية السلم الوظيفي الإداري سنة 1979م، على الرغم من قصر المدة الزمنية التي قضاها بالعمل الإداري.

وبعد إلغاء وظيفة الكاتب العام انتقل إلى جمعية الدعوة الإسلامية سنة 1982 فعمل بها مديرا لمكتب المؤتمرات، ثم مقررا للجنة إدارة الجمعية.

وقد أتاح له عمله بالجمعية أن يكون متعاونا مع كلية الدعوة الإسلامية في مجال التدريس من سنة 1986م، إلى أن تفرغ للتدريس بها وكُلِّف برئاسة قسم الدراسات القرآنية، وفي نهاية 2004 م، رُقِّي بقرار من لجنة الجمعية إلى درجة أستاذ.

وتقلد الأستاذ السائح –رحمه الله- مناصب إدارية قيادية عديدة خارج مؤسسة جمعية الدعوة الإسلامية، أكسبه خبرة إدارية وقانونية، فكان عضوا غير متفرغ في اللجنة الفرعية لمراجعة قانون الأحوال الشخصية بوزارة العدل، وعضوا غير متفرغ في اللجنة العلمية الاستشارية في الهيئة العامة للأوقاف، وعضوا في الهيئة المشتركة لتأسيس المراكز الثقافية الإسلامية، وعضوا لمراجعة الكتب بمكتب الإعلام بجمعية الدعوة الإسلامية، بالإضافة إلى عضويته باللجنة العلمية ومجلس إدارة الكلية.

وأما في مجال تقنية المعلومات، فقد طور خبراته في مجال الحاسوب والمكتبات الإلكترونية المتوفرة في عصره، وقد أفاد بذلك طلاب الدراسات العليا كثيرا؛ بتدريبهم على طباعة رسائلهم وتنظيمها وترتيبها.

نِتاجه العلمي:

وفي سنة 1998م، نال الأستاذ السائح درجة الدكتوراه بدرجة جيد جدا من جامعة القرآن الكريم بالخرطوم، وكان موضوع رسالته: جهود العلماء الليبيين في علم الكلام.

وترك العلّامة السائح –رحمه الله-إرثا معرفيا كبيرا ومهما؛ تأليفا وتحقيا، ناقش فيه كثيرا من القضايا العلمية، وأبرز للوجود مؤلفاتٍ، وجهود أعلام ليبيين، فجزاه الله عن العلم وأهله خير الجزاء.

وطبعت جل أعماله العلمية سنة 2009م، في موسوعة فخمة المحتوى والمظهر، مُتوشِّحَةً بعنوان: مجموعة الأعمال الكاملة، وجاءت في ثلاثة عشر مجلدا، على النحو الآتي:

1. المجلد الأول: مدخل الدراسات القرآنية.
2. المجلد الثاني: سبيل الهدى؛ دراسة تاريخية وتبويب موضوعي لآيات من القرآن الكريم.
3. المجلد الثالث: جهود العلماء الليبيين في علم الكلام.
4. المجلد الرابع: العقيدة بين الوحي والفلسفة والعلم.
5. المجلد الخامس: دليل المهتدين؛ عقائد الإسلام، الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج.
6. المجلد السادس: منجد الدعاة في الفقه الإسلامي المقارن، قسم الأحوال الشخصية.
7. المجلد السابع: الفقه الإسلامي، الاقتصاد والمعاملات المالية.
8. المجلد الثامن: التحفة في علم المواريث، تأليف: محمد بن خليل بن غلبون. دراسة وتحقيق.
9. المجلد التاسع: إرشاد المريدين لفهم معاني المرشد المعين على الضروري من علوم الدين، تأليف: علي بن عبد الصادق الطرابلسي. دراسة وتحقيق.
10. المجلد العاشر: مكون من بحوث عدة، وهي:
- محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم).
- الأصل في الأشياء الإباحة، ولكن المتعة حرام، بحث فقهي مقارن.
- الرِّق والعنصرية بين الإسلام وحضارة الإنسان.
- نظرات في منهج الدعوة الإسلامية.
11. المجلد الحادي عشر: لمحات من التصوف وتاريخه.
12. المجلد الثاني عشر: مكون من كتابين، وهما:
- نظرات في كتاب كفاية المتحفظ، تأليف: ابن الأجدابي، دراسة وتحقيق.
- التحفة المكية والنفحة المسكية، تأليف: جلال الدين السيوطي، دراسة وتحقيق.
13. المجلد الثالث عشر: حوى جملة من البحوث والمقالات في المعارف الإسلامية.

وله –رحمه الله- رسائل غير مطبوعة، وهي ملاحق رسالة الدكتوراه:

1. الدينونة الصافية، تأليف: عمروس بن فتح النفوسي.
2. شرح مرشدة ابن تومرت، تأليف: محمد بن يحيى الشيباني الطرابلسي.
3. شرح سبك الجواهر، تأليف: محمد الصالح الأوجلي.

بالإضافة إلى عشرات الدراسات والبحوث العلمية التي نشرت بمجلة كلية الدعوة الإسلامية وجريدة الحرية، فرحمه الله رحمة واسعة، وجزاه عن الإسلام وأهله خير الجزاء[1].

[1] لم أجد ترجمة مستقلة مطبوعة للدكتور السائح، بالإضافة إلى أنني لم أستطع التواصل مع أحد من أفراد أسرته، فلجأت إلى ما كتبه عنه صديقه الوفي، فضيلة الأستاذ الدكتور: عبدالحميد الهرّامة –حفظه الله–رئيس مجمع اللغة العربية، عندما قدّم له في المجلّد الأول من مجموعة الأعمال

المطلب الأول

وقفات مع كتابه "لمحات من التصوف وتاريخه"

إن أجود أصناف المعرفة، وأكثرها أثرا ومنفعةً؛ ما يكون ثمرةً لقاعات الدرس وخلاصة للمداولات والنقاشات البحث بين الأستاذ وطلابه، وهذا هو التوصيف الدقيق لكتاب "لمحات من التصوف وتاريخه"؛ إذ هو في الواقع نتاج معرفي كبير ورؤية نقدية تحليلية شاملة، واستنتاجات دقيقة وموضوعية للتصوف فكرا وتأريخا.

وضاعف من قيمة هذا السفر النفيس أن موضوعاته كانت ضمن مختارات دراسية ألقاها المؤلف-رحمه الله-على طلابه بكلية الدعوة الإسلامية بطرابلس، في محاضرات أسبوعية متواصلة، تخللتها حلقات نقاش جادة أثرت المادة وأسهمت في تقريب مضمونها وحل رموزها وإشاراتها وإيضاح ما أشكل منها، فأسدى المؤلف خدمة جليلة لكل من رام دراسة التصوف والوقوف على أبرز مدارسه والوقوف ما سطرته أقلام القدامى من أعلامه؛ دون تهيُّب أو حذر[1].

واتسم الكتاب بالموضوعية في البحث والإنصاف في الحكم، مع التقصي الواضح والرصد الدقيق لما كان وافدا من أفكار أو نابعا من الصوفية أنفسِهم؛ بحسب بيئة وثقافة وفكر كلٍّ منهم.

ومن اللطائف التي تضفي على الكتاب قيمة وجلالا، وتزيد مؤلفه سموا واحتراما؛ الخطاب الأخوي الدافئ، والدعاء الجامع الصادق اللذين صدّر به مقدمة كتابه قائلا: "أخي القارئ؛ قبل أن تقرأ هذا الكتاب، ادع الله بأن يوفقك للخير، ويهديك للحق، ويجنبك البدع والضلالات، وأن يكون هذا الكتاب فاتحة خير لقراءة أعمق وبحث أدق ..."[2].

وعلى الرغم من أن الكتاب لم يكن معروضا للبيع أو التوزيع كما يذكر المؤلف في مقدمته؛ إلا أن الأيدي تلقفته حتى نفدت جميع نسخه التي أشرفت على طبعها كلية الدعوة الإسلامية، مما اضطر كثيرا من القراء إلى تداول النسخة الواحدة بينهم.

ومع هذا الثناء والاستحسان الذي حظي به الكتاب، لم يسلم من النقد مثل أي عمل بشري، ومن ذلك أن أحد أصدقاء المؤلف قابله بلهجة تحمل في ثناياها كثيرا من الغضب والاحتجاج؛ لأنه تكلم عن السادة الصوفية بطريقة تقلل من مكانتهم في نفوس الناس، وأشار إلى أن أسلوب النقد لا يخدم قضية التصوف على حدّ وصفه!

فرد عليه المؤلف -رحمه الله- أن ثمة من المتصوفة من يربّي مُريديه ويكفيه منهم التسليم والانقياد، أما هو –أي المؤلف- فيُدرس طلابه ليستعملوا العقل والمنطق ورصيدهم من الثقافة الإسلامية الأصيلة القائمة على القرآن والسنة.

كما لا يخفي المؤلف-رحمه الله- تحفّظه على بعض من تناولوا التصوف، ويجعلهم على فريقين بين غالٍ وجافٍ:

الأول- فريق عمم هجومه، ورأى أنه كان ينبغي له أن يستثني من نقده ما كان عليه السلف الأول، وهو ما سُمي بالتصوف السني، أو الإسلامي الخالص.

الثاني- فريق جعل مشايخ الطرق والأولياء ملجأ لذوي الحاجات يدعونهم من دون الله، وأحدثوا البدع التي تمثلت في النذور والزيارات، وابتزاز البسطاء ببيع البركة والمتاجرة بالدين![3]

ويرى المؤلف أن ابن تيمية-رحمه الله- وإن كان من ألدّ خصوم الصوفية –كما يراه بعضهم- كان هجومه ونقده كان مقتصرا على "التصوف المدخول"؛ تصوف ما بعد القرن الثالث.

ومهما يكن فإن الكتاب الذي بين أيدينا يقسم المراحل التي مر بها التصوف إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى- هي التي يشملها صدر الإسلام وعصر الصحابة والتابعين، وفي هذه المرحلة لم يكن ثمة شيء اسمه تصوّف، ولكن الذي كان سائدا سُمّي إخلاصا وتزكية للنفس وزهدا وإحسانا، وكان أصحاب هذا المسلك يعتمدون على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وعمل الصحابة والتابعين-رضي الله عنهم- بوصفهم تلاميذ مدرسة النبوة.

المرحلة الثانية- تبدأ بالقرن الثالث حيث تسرب إلى الفكر الإسلامي سيل من الأفكار والمعتقدات والمعارف المتعددة المتعارضة نتيجة حركة الترجمة من جهة، ودخول أصحاب تلك الحضارات واندماجهم في الدولة الإسلامية وحضارتها الآخذة في الازدهار من جهة أخرى.

الكاملة، مدخل الدراسات القرآنية، (دار الكتب الوطنية بنغازي–ليبيا، الطبعة الأولى 2009) ص7، وما بعدها. بالإضافة إلى ما كُتب عن الدكتور السائح في مواقع التواصل الاجتماعي.

[1] انظر حسين؛ السائح علي، لمحات من التصوف وتاريخه، (دار الكتب الوطنية بنغازي–ليبيا، الطبعة الأولى 2009) ص5.

[2] المصدر السابق؛ ص11.

[3] انظر حسين؛ السائح علي، لمحات من التصوف وتاريخه، (دار الكتب الوطنية بنغازي–ليبيا، الطبعة الأولى 2009) ص21.

وكان للجانب الروحي نصيب من التأثر بالأفكار الوافدة، وبرزت طوائف من العباد الذين مزجوا تجربتهم في المجاهدة بفلسفات وتصورات لا صلة لها بالإسلام، مع ظهور شطحات وبدع وممارسات لم يكن عليها عبّاد وزهّاد المرحلة الأولى.

المرحلة الثالثة- ظهرت هذه المرحلة في القرن الثامن تقريبا، وسيطرت على المجتمع الإسلامي برمّته أو كادت، واتسمت هذه المرحلة بالمحاكاة، وظهرت الطرق والتقليد الشديد للرؤساء والمتبوعين، مع كثرة الانقسامات وتعدد التسميات، وذاع الارتزاق باسم الدين والتعبّد والمتاجرة بالبركة، وأضحت الكرامات وخوارق العادات هي المعيار وليس العلم وصدق الاتباع وموافقة الشريعة[1].

ويؤكد المؤلف –رحمه الله- على أنه لم يضع أي حساب ولم يبال بالنقد الذي تحركه العواطف المجردة عن الأدلة، سواء كان عن مريدي التصوف صادرا، أم عن خصومه؛ لأن هدفه من هذه الدراسة ليس مدح التصوف أو القدح فيه، بل لتسليط الضوء على الأفكار السائدة في المجتمع الإسلامي، الذي سيكون للجيل المؤمن من الدعاة مهمّة الاستفادة مما هو صالح منها، ومعالجة المنحرف عن شرع الله تعالى.

ومن اللافت في هذا السفر القيّم أن مؤلفه -رحمه الله- لم يغفل فيه عن تنوع مصادر الدراسة؛ ليرشد طلّابه ويعودهم الاستفادة من مواطن النور والصواب والحق في تراثهم الإسلامي، حتى يربط الماضي بالحاضر، ويكون التواصل الفكري بين الأجيال متواترا متصلا.

وإيغالا منه –رحمه الله- في الإنصاف والبحث عن الحقيقة أينما حلّت ومهما كان قائلها، نجده لم يُغفل كتابات وآراء المستشرقين حول الفكر الإسلامي بصورة عامة، والتصوف بصورة خاصة؛ ليلفت نظر طلّابه إلى صورة التراث الإسلامي بجميع مكوناته في أعين الآخرين، فتحصل فائدة بمعرفة الحق بغض النظر عن قائله[2].

المطلب الثاني

التصوف: نشأته، وموقف الفقهاء منه

يذكر المؤلف –رحمه الله– أن الصوفية أنفسهم قد اختلفوا اختلافا كبيرا في تعريف التصّوف، ذلك أن كلًّا من منهم يُعبّر عن ذوقه وإحساسه الوجداني الخاص به، فهم –في رأيه-يصفون ما يعسر وصفه، ولا يتحدثون عن شيء ماديّ ذي حقيقة موضوعية قابلة للتحديد، بل من شغل منهم بالحدود (التعريفات) لم يتمكن من الإفلات من التعميمات[3].

لذا فإن "رينولد نيكلسون جمع حتى القرن الخامس ثمانية وسبعين تعريفا، وعبد القاهر البغدادي جمع على الترتيب الأبجدي من مؤلفات أقطاب الصوفية الثقات ما يقرب من ألف تعريف"[4].

كما أن الشيخ أحمد زروق –رحمه الله- يقول في القاعدة الثانية من قواعد التصوف: "وقد حُدَّ التصوّفُ ورُسم وفُسِّر بوجوه تبلغ نحو الألفين، مرجعها كلُّه لصدق التوجه إلى الله تعالى، وإنما هي وجوه فيه. والله أعلم"[5].

ووسط هذه التعريفات المتكاثرة، يقف المؤلف وقفة كعادته في تصور المسائل عند قول الدكتور أبي الوفاء التفتازاني الذي يرى أن التصوف فلسفة حياة تهدف إلى الترقّي بالنفس أخلاقيًا وتتحقق بواسطة رياضات عملية معينة تؤدي إلى الشعور في بعض الأحيان بالفناء في الحقيقة الأسمى، والعرفان بها ذوقا وعقلا[6].

---

[1] انظر حسين؛ السائح علي، لمحات من التصوف وتاريخه، (دار الكتب الوطنية بنغازي–ليبيا، الطبعة الأولى 2009) ص20.

[2]– المصدر السابق، ص23.

[3] انظر حسين؛ السائح علي، لمحات من التصوف وتاريخه، (دار الكتب الوطنية بنغازي–ليبيا، الطبعة الأولى 2009) ص25.

[4] إجناس جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، تحقيق: محمد يوسف موسى، عبد العزيز عبد الحق، علي حسن عبد القادر، (دار الكاتب المصري، الطبعة الأولى 1946) ص147.

[5] أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى زروق الفاسي البُرْنُسي: قواعد التصوف، تحقيق: عبد المجيد خيالي، ص: 21، منشورات محمد علي بيوضون، الطبعة الثانية، 2005، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

[6] انظر الموسوعة الفلسفية العربية، نخبة من الباحثين، رئيس التحرير: د. معن زيادة، 1 – 259، معهد الإنماء العربي.

وتأسيسا على ما تقدم يرى المؤلف أن التصوف بوصفه فلسفة حياة ومنهج سلوك استعدادا لآخرة، ليس خاصا بالمسلمين، ولا بالعقائد التي تمت إلى أصل ومرجع سماوي، بل إنه شائع في المعتقدات الوضعية، في معتقدات الصين والهند واليونان وغيرهم من شعوب الأرض الذين دُوِّنتْ حضاراتهم وفلسفاتهم، وله طقوس قد يتشابه بعضها مع البعض، وقد يختلف.

ويرى المؤلف أنه ما دام يوجد صوفي مسلم أو مسيحي أو بوذي، ولا نشعر بتعارض في ذلك، فمردُّ ذلك إلى أن التصوف نزعة من النزعات الفردية، وليس فرقة أو نحلة تلتزم بها مجموعات من العامة، ولهذا السبب يمكننا أن نلاحظ في المجتمع الإسلامي ادعاء التصوف عند السنّي، وعند الشيعي، والحنفي، والمالكي، إلخ[1].

أصل التسمية ونشأتها:

وأما منشأ التسمية ونسبتها فيذكر المؤلف –رحمه الله- أن نقاشا طويلا أثير حولها: لأي شيء هي، وفي أي زمن ظهرت؛ لكونها سمة لمن اتصف بالزهد والعبادة، لكنه يخلص إلى أن هذا الاسم، وإن لم يكن معروفا في صدر الإسلام الأول، ولم يرد شيء من اشتقاقاته فضلا عن لفظه في القرآن الكريم والسنة النبوية، إسلامي المنشأ والغاية، بالإضافة إلى أنه روي عن الحسن البصري أنه لقي صوفيا في الطواف، فأعطاه شيئا فلم يقبله، وقال: معي أربعة دوانق؛ فيكفيني ما معي[2].

ومن هنا فإن مؤلفنا –رحمه الله- يميل إلى أن هذه التسمية معروفة منذ القرن الأول، وقد ذكر أن ثمة وجوها متباينة في سببها؛ استحسن بعضها، وأنكر بعضها الآخر، كما فعل مع رأي ابن الجوزي –رحمه الله- الذي ذكر أن أصل التسمية كان لقوم في الجاهلية يقال لهم الصوفية، كانوا يخدمون الكعبة لاشتغالهم بالعبادة، وحينما ظهرت طبقة العُبَّاد في القرن الثالث الهجري شبهوا هؤلاء العبّد بأولئك، فقالوا: صوفية[3].

فعقّب المؤلف قائلا: إن هذا الرأي بعيد؛ لأن تشبيه الزاهد المنقطع للعبادة في القرن الثالث بجاهلي غير مقبول، بالإضافة إلى أن هذا الرأي رجحه ابن الجوزي، وهو معروف بمعاداته للصوفية، فنسبهم إلى أصل لا يسرُّهم الانتساب إليه[4].

موقف الفقهاء والمُحدِّثين من الصوفية:

يذكر المؤلف أن ثمة صراعا حصل في التصوف بين متحمّس إليه، ورافض له متردد منذ زمن بعيد، فأهل السنة اختلفوا؛ إذ لم يكن لهم رأي واحد في الموضوع في رأيه (رحمه الله)، فالمحدّثون، وعلى رأسهم ابن حنبل، يأخذون على التصوف أنه يغذي التفكر بأمور ثانوية، ويصرف أصحابه عن مظاهر العبادة، وما يدعيه بعض الصوفية من الخلة مع الله يؤدي إلى استباحة الفرائض، حتى إن أبا زرعة أحد تلاميذ ابن حنبل يَعُدُّ التصوف زندقة، وقد سئل مرة عن كتب الحارث المحاسبي فقال للسائل: إياك وهذه الكتب، هذه كتب بدع وضلالات، عليك بالأثر فإنك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب، قيل له: في هذه الكتب عبرة، قال: من لم يكن له في كتاب الله عبرة، فليس له في هذه الكتب عبرة.

ويشير المؤلف إلى أن أشد ما يثير أعداء التصوف من أهل السنة هي تلك المضاهاة والملامح في أفكار اليهود والنصارى، ثم ذكر أثرا عن سفيان بن عيينة جاء فيه أن "من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبّادنا كان فيه شبه من النصارى"[5].

ومن هنا-يرى المؤلف-معارضة كثير من علماء وأعلام من أهل السنة للتصوف، ومناصبة أتباعه العداء، ومن هؤلاء الإمام أحمد بن حنبل الذي كان يكره من الحارث المحاسبي اهتمامه بالكلام والتصوف فهجره ونفّر أصحابه منه[6].

---

[1] انظر حسين؛ السائح علي، لمحات من التصوف وتاريخه، (دار الكتب الوطنية بنغازي–ليبيا، الطبعة الأولى 2009) ص27.

[2] انظر إحسان إلهي ظهير الباكستاني، التَّصَوُّفُ؛ المنشأ وَالمَصَادر، (باكستان–لاهور، إدارة ترجمان السنة، الطبعة: الأولى 1986) ص: 29. نقلا عن عوارف المعارف، للسهروردي: عبد القاهر بن عبد الله، (دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة الثانية 1403 هـ) ص59 إلى 63.

[3] انظر ابن الجوزي؛ جمال الدين أبي الفرج: تلبيس إبليس، عني بتصحيحه والتعليق عليه بعض علماء الأزهر، (إدارة الطباعة المنيرية، الطبعة الثانية) ص161.

[4] انظر حسين؛ السائح علي، لمحات من التصوف وتاريخه،(دار الكتب الوطنية بنغازي–ليبيا، الطبعة الأولى 2009) ص29.

[5] ابن قيّم الجوزية؛ أبوعبدالله محمد بن أبي بكر: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، تحقيق: الشيخ محمد حامد الفقي، (دار المعرفة–بيروت، الطبعة الثانية 1975)، ص24.

[6] انظر حسين؛ السائح علي، لمحات من التصوف وتاريخه،(دار الكتب الوطنية بنغازي–ليبيا، الطبعة الأولى 2009) ص37.

ثم ذكر جماعة ممن صنفوا في الرد على التصوف، ومنهم ابن تيمية الذي كتب رسالة إلى النصر المنبجيّ الصوفي، تناول فيها مذهب الاتحاد ووصفه بالزيغ، ثم أفتى بعدم جواز زيارة القبور التي كان يعظمها الصوفية؛ فنشأ بذلك نزاع عنيف، أدّى إلى سجنه مرات عديدة، إلى أن توفي في سجنه (رحمه الله).

ومنهم برهان الدين البقاعي، الذي كتب كتابا أسماه: مصرع التصوف، أو تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي، وتحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد، ومنهم عضد الدين الإيجي الذي قال عن ابن عربي: إنه كان كذَّابا حشاشا، وقد تبعه ابن الفارض.

ولعلّنا نختم بهذا النقل الذي ذكره المؤلف عن الشاطبي أنه قال: "وقع السؤال عن قوم يتسمون بالفقراء، يزعمون أنهم سلكوا طريق الصوفية، فيجتمعون في بعض الليالي، ويأخذون في الذكر الجهري على صوت واحد، ثم في الغناء والرقص إلى آخر الليل، ويحضر معهم بعض المتسمين بالفقهاء، يترسمون برسم الشيوخ الهداة إلى سلوك ذلك الطريق: هل هذا العمل صحيح في الشرع أم لا؟ فوقع الجواب بأن ذلك كله من البدع المحدثات، المخالفة طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وطريقة أصحابه والتابعين لهم بإحسان"[1].

موقف الصوفية من الفقهاء والمُحدِّثين:

بعد أن ذكر المؤلف إلى موقف الفقهاء وعلماء الحديث من التصوف، انتقل إلى سلوك الصوفية في التعامل مع الفقهاء والمُحدِّثِين وغيرهم من علماء الشريعة، فيذكر أنهم –أي الصوفية-كانوا يُشنّعون على الفقهاء، ويصفونهم بعبارات قاسية؛ من ذلك أنهم لم يستفيدوا من علمهم شيئا، وأنهم علماء سوء وعلماء دنيا، لا قيمة لعلمهم ولا أثر له في أنفسهم أو على الناس![2] من ذلك ما قاله أبو طالب المكي محاكاة لما جاء في الإنجيل على لسان السيد المسيح عليه السلام: "مثل علماء السوء مثل صخرة وقعت على فم النهر؛ فلا هي تشرب الماء، ولا تترك الماء يخلُص إلى الزرع".

وكذلك علماء الدنيا قعدوا على طريق الآخرة؛ فلا هم نفذوا، ولا تركوا العباد يسلكون إلى الله عز وجل.

وقال: "مثل علماء السوء كمثل قناة الحش؛ ظاهرها حسن، وباطنها نتن، ومثل القبور المشيدة، ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى"[3].

وأما الإمام الغزالي فيذكر المؤلف أنه كان يلحق الفقه والفقهاء بعلماء الدنيا وعلمائها، لأن الفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا، وإنصاف المظلوم من الظالم إذا حصل اعتداء من القوي على الضعيف.

بل العبادة التي هي دليل انقياد العبد لربه لا يعدو نظر الفقيه فيها عن تصحيح شكلها وظاهرها، وأما القلب، فخارج عن ولايته.

والعلم الذي يُعَدُّ من علوم الآخرة هو ما تعلّق بالقلب، وأما الفقه فهو من قبيل الصناعات، وكثير من أربابها ممن انحرفوا عن الطريق المستقيم.

وأشار المؤلف إلى أن هجوم الفقهاء على أبي حامد الغزالي كان له عواقبُ تمثلت في موقف علما المغرب والأندلس من مؤلفاته، وبخاصّة إحياء علوم الدين؛ وكان مما زاد من حدّة الخلاف أن كتبه اشتملت على التصوف وعلم الكلام وفقا لمذهب الأشعري، وأهل المغرب كانوا على مذهب السلف في العقائد؛ لذا جُمعت كتب الغزالي وأحرقت في الميادين، واختلف الفقهاء في جواز الاطلاع عليها وقراءتها[4].

وقفةٌ وتنبيهٌ جِدُّ خَطِير:

صَدَّرَ المؤلف هذه الفقرة من كتابه بعنوان لافتٍ للأنظار، جاء فيه: "قد يكونُ خَطرا"، ثم أخذ يسترسل –رحمه الله- في بيان ملامح هذا الخطر والجهات والأطراف الكامِنة وراءه، فنوّه إلى ما يحاك من قبل أعداء الإسلام من مؤامرات ضد

(1) الشاطبي، إبراهيم بن موسى، الاعتصام، الجزء الثاني، تحقيق ودراسة: د. سعد بن عبد الله آل حميد (دار ابن الجوزي للنشر التوزيع، المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، 1429 هـ - 2008) ص99.

(2) انظر حسين؛ السائح علي، لمحات من التصوف وتاريخه، (دار الكتب الوطنية بنغازي-ليبيا، الطبعة الأولى 2009) ص39.

(3) انظر حسين؛ السايح علي، لمحات من التصوف وتاريخه،(دار الكتب الوطنية بنغازي-ليبيا، الطبعة الأولى 2009)، ص40، نقلا عن دراسات في حضارة الإسلام، جب، ص:270، والرسالة القشيرية، 2- 55، والحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز، ترجمة أبي ريدة، 1- 352، وقوت القلوب، لأبي طالب المكي، 1- 288.

(4) المصدر السابق، ص37.

هذه الأمة وعقيدتها، تحت شعارات إنسانية للتعايش السلمي، والقضاء على الصراع العنصري والديني، وذلك كلّه بإشراف نوادي الليونز، والروتاري، والماسونية، والصهيونية العالمية.

وأن العصر الحديث شهد من بعض الباحثين محاولة تأكيد حياد التصوف، وتجاوزه للخلافات الدينية والمذهبية، وقد صاحب هذه الدعوات الإعلان عن جمعية صوفية تجمع بين أديان مختلفة يرأسها عناية الله خان، وتصدر عنها مجلة فصلية.

وأشار المؤلف إلى أن فكرة تجاوز الخلافات الدينية والمذهبية اكتفاءً بأُخوّة التصوف فكرة قديمة نشأت مع القول بوحدة الوجود، حيث تنفي التعددية بمختلف صورها وأشكالها، ومن ذلك مانقله العفيف التلمساني عن الشيخ عبد الرحيم شيخ ابن الصباغ أنه قال:" كنت أنكر على نفسي أن أكون في بلد فيه يهودي أو نصراني، وأنا اليوم لا أستنكف أن أعانقهم".

ويعبر ابن عربي عن هذا الإخاء البشري الذي يتجاوز الآراء والمعتقدات قائلا:

لقد صار قلبي قائلا كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنّى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

ويقول جلال الدين الرومي: "إذا كانت صورة معشوقنا في معبد أوثان فمن الجهل المطبق أن نطوف حول الكعبة، وإذا كانت الكعبة خالية من عبير المحبة فهي كنيس، وإذا تنسَّمنا عبير الاتحاد بذاته تعالى بذلك الكنيس فهو كعبتنا".

وقال أبوسعيد الصوفي لابن سينا: " إذا لم تُهدم المساجد والمدارس هدما تامًّا فسوف لا ينجز الدراويش عملهم، ومادام الكفر والإيمان لم يتشابها، ولم يتماثلا تماما فما من رجل يكون صحيح الإيمان والإسلام"[1].

ويخلُص المؤلف-بعد هذا العرض-إلى أن الواجب العلمي يُحتّم علينا الانتباه إلى أن هذه الأفكار التي تسربت في أزمنة لاحقة إلى بعض زعماء الطرق الصوفية، جعلتهم يتخلون عن واجب الجهاد والذود عن أوطانهم ضد اعتداءات النصارى، بالإضافة إلى أن أمثال هذه الجمعيات التي يرأسها أشخاص يحملون أسماء إسلامية وتحمل شعارات إنسانية برَّاقة، هي في الأعم الأغلب جمعيات بهائية وأحمدية تدعمها المنظمات التنصيرية والاستعمار.

ثم يختم بالقول: إن هذه الأفكار والجمعيات لا تختلف في أهدافها عن محاولة توحيد الأديان التي قام بها الإمبراطور الهندي أبو الفتح جلال الدين الملقب بأكبر شاه، المتوفى سنة 1605 م، وقد أسفرت عن زعزعة للعقيدة ومسخ للدين في قلوب خلائق من رعيّته إلا ما رحم ربي[2].

---

[1] انظر حسين؛ السائح علي، لمحات من التصوف وتاريخه، (دار الكتب الوطنية بنغازي–ليبيا، الطبعة الأولى 2009) ص41–42. نقلا عن إجناس جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، تحقيق: محمد يوسف موسى، عبد العزيز عبد الحق، علي حسن عبد القادر، (دار الكاتب المصري، الطبعة الأولى 1946) ص152.

[2] انظر حسين؛ السايح علي، لمحات من التصوف وتاريخه، الطبعة الأولى، (دار الكتب الوطنية بنغازي–ليبيا، الطبعة الأولى 2009) ص43.

المطلب الثالث

التصوف السُنّي: مفهومه، ومصادره

يرى مؤلفُ هذا السّفر القيّم -رحمه الله- في غير موضع منه أن التصوف، لا سيما في القرون المتأخرة، كان يمثّل ظاهرة اجتماعية في شتَّى الأقطار الإسلامية، وبغض النظر عن مدى الاتفاق أو الاختلاف مع بعض رموزه وطوائفه؛ لا يمكن إنكار الدور المهم والكبير الذي اضطلع به رُوّاده، سواء في نشر الإسلام، أم في مواجهة الحملات الصليبية الاستعمارية، وتعليم القرآن الكريم، والمحافظة على العقائد والعبادات بين أبناء المجتمعات الإسلامية.

ومن هذا المنطلق وضع المؤلف –رحمه الله- هذا العنوان في ثنايا كتباه، فالتصوف عنده طوائف شتّى وطرائقُ قددا، تحوي عقائد متنوعة وأفكارا متباينة، ومن غير الإنصاف أن تصدر في حقّه أحكام واحدة، ومن هنا فقد تجلّى لديه –رحمه الله- وصف المسلك الأقوم منه بالتصوّف السُنّيّ، نسبة إلى الوسطية والاعتدال في الأقوال والأفعال، وفق منهج القرآن الكريم، وسنة النبي عليه الصلاة والسلام، ولذلك كل زهد يصطدم مع هذين الأصلين يُعدُّ بعيدا عن روح وأصالة الإسلام، فحرمان النفس من الطعام والشراب والبالي من اللباس وترك الكسب والانقطاع للعبادة، والتبتل مع القدرة على الزواج، وأشباه ذلك من سلوك الصوفية مرفوض في الإسلام.

فالإسلام دين الفطرة، واليسر، وعدم التكلّف والعنت، يقول الله جل وعلا: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: 78]، بل إن الله أنكر على المتنطعين الذين يضيّقون على الناس ويحرمون عليهم ما أباح الله لهم: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: 32]، غير أن هذه الإباحة محكومة بميزان الوسطية التي لا تفريط فيها ولا إفراط[1]، كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31].

ثم يستشهد المؤلف بقصة الرهط الذين جاءوا إلى أزواج النبي –صلى الله عليه وسلم-يسألون عن عبادته، فلما علموا بها كأنهم تقالُّوها، وقالوا:" أين نحن من رسول الله وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر!"، وقد سمعهم الرسول-صلى الله عليه وسلم- فخرج لهم وقال: "أما والله إني لأتقاكم لله، وأخشاكم له، وإني أصوم وأفطر، وأقوم الليل وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني".

ثم يعقب المؤلف بعد سرد هذه الآيات والأحاديث النبوية قائلا؛ إن الإسلام دين عملي يحث على العمل، وإعداد العدة لبناء مجتمع قوي ينشر كلمة الله، ويسهم في بناء الحضارة الإنسانية.

[1] انظر حسين؛ السائح علي، لمحات من التصوف وتاريخه، (دار الكتب الوطنية بنغازي–ليبيا، الطبعة الأولى 2009) ص43.

ولم يقتصر هذا الهدي والتوجه المعتدل على القرآن والسنة فحسب، بل كان شائعا بين الخلفاء الراشدين وباقي الصحابة (رضي الله عنهم)، من ذلك ما ذكره المؤلف –رحمه الله- من أن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب كان يمر على المساجد ويُخرج المنقطعين للعبادة؛ لأن ترك العمل وإهمال الدنيا تشبُّه برهبان النصارى[1].

وفي المقابل يشير المؤلف إلى أن ما يُروى من تشدد عمر-رضي الله عنه- في زهده إنما هو ناتج عن ظروفه وأسبابه، فهو حينما منع عن نفسه وأسرته القمح والسّمن عام الرمادة؛ فلأن عامّة المسلمين لا يجدون شيئا منه؛ ومن ثم فإن تلك المواقف كانت لإعادة التوازن للحياة اليومية وإيجاد قاسم مشترك بين الراعي والرعية والغني والفقير، وتلك هي السمة العامة لحياة الصحابة رضي الله عنهم؛ إذ كان منهم الأغنياء الزهّاد الذين لم يُبطرهم المال أو يؤثر في سلوكهم، بل كان سببا في دعم أبناء مجتمعهم، كعثمان بن عفّان، وعبدالرحمن بن عوف، وغيرهما كثير (رضي الله عنهم أجمعين)[2].

ومضى عهد الصحابة والتابعين وتابعيهم دون أن يصبح الزهد سمة لأحد ينعت بها بين الناس، وكان السلف الأولون يعتزون بشرف الصحبة للرسول الأكرم (عليه الصلاة والسلام)، وكان الجيل الثاني يعتزون بهذه التبعية، ولهذا لم تظهر تسميات الزهّاد، والبكّائين، والصوفية، إلا بعد القرن الثاني تقريبا[3].

ويختم مؤلفنا –رحمه الله- القول بأن التصوف الذي مارسه الصحابة والتابعون هو الترجمة العملية الصحيحة لأحكام الشريعة، ويسمّى هذا السلوك تزكية، وزهدا، وإحسانا[4].

الصوفية الأوائل وموقفهم من الشريعة:

يذكر المؤلف –رحمه الله-أن التصوف في صورته النقية، كان لا يستمد عناصر وجوده إلا من الكتاب والسنة والتأسِّي بعمل السلف الصالح من الصحابة والتابعين، فلم يكن هناك وجود لاسم التصوف أصلا، ولم يكن ثمة تصنيف للعلماء بين أهل الظاهر والباطن، أو علماء الشريعة وعلماء الحقيقة[5].

وكان المنهجان يكمّل أحدهما الآخر، "فلا تصوّف إلا بفقه؛ إذ لا تُعرف أحكام الله تعالى الظاهرة إلا منه، ولا فقه إلا بتصوف؛ إذ لا عمل إلا بصدق التوجه، ولا هما إلا بالإيمان؛ إذ لا يصح واحد منهما بدونه، فلوم الجمع لتلازمهما في الحكم، كتلازم الأرواح للأجساد"[6].

ويرى المؤلف –رحمه الله- أن كبار الصوفية من الطبقة الأولى كانوا ملتزمين بالشريعة أمرا ونهيا، وبهذا شهد لهم ابن تيمية، وهو من ألدّ خصوم التصوف في مرحلته الثانية، ومن ذلك قوله: "المستقيمون من السالكين من جمهور السلف مثل الفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبو سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والسرقسطي، والجنيد بن محمد، وغيرهم من المتقدمين".

ومثل الشيخ عبد القادر والشيخ حماد والشيخ أبي البيان وغيرهم من المتأخرين، فهم لا يُسوّغون للسالك، ولو طار في الهواء، أو مشى على الماء، أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين، بل عليه أن يفعل المأمور، ويدع المحظور، وهذا هو الحق الذي يدل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف[7].

الخاتمة

أولًا- النتائج:

---

[1] انظر حسين؛ السائح علي، لمحات من التصوف وتاريخه، (دار الكتب الوطنية بنغازي–ليبيا، الطبعة الأولى 2009) ص46.

[2]– انظر المصدر السابق ص48.

[3] انظر المصدر السابق ص50، نقلا عن: محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية، 2– 27.

[4] انظر حسين؛ السائح علي، لمحات من التصوف وتاريخه، (دار الكتب الوطنية بنغازي–ليبيا، الطبعة الأولى 2009) ص56.

[5] انظر المصدر السابق، (دار الكتب الوطنية بنغازي–ليبيا، الطبعة الأولى 2009) ص46.

[6] المصدر السابق ص50، نقلا عن أحمد عجيبة، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، (دار الإيمان –دمشق)، ص 1– 5.

[7] ابن تيمية؛ أحمد بن عبدالحليم: مجموع الفتاوى، (مطبعة فضالة بالمغرب) 10– 516.

في ختام هذا البحث يمكن أن أسجل أهم ما نتج عنه في الآتي:

1) أن العلّامة السائح خلف تراثا مهما في مجال علوم الشريعة عموما، التصوف والسلوك خصوصا ينبغي أن يُلتفت إليه يُعتنى به، وبعلماء ليبيا بعامة.
2) أن التصوف كغيره من المدارس الفكرية فيه المصيب والمخطئ والمحق والمبطل، ولا ينبغي رميه كله عن قوس واحدة، فالإنصاف يقتضي تأييد ونصرة الموافق ورفض ورد المخالف.
3) أن التصوف السنّي المقيّد بالكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة كان له دور كبير في المحافظة على ثوابت الإسلام، وإصلاح المجتمع وتنقيته من الرواسب والظواهر المخالفة للشريعة.
4) أن بعض الحركات الصوفية السنّية كان لها دور كبير في رفع راية الجهاد ودفع العدو الصّائل عن بلاد المسلمين.

ثانيًا-التوصيات:

1) بالنظر إلى الإرث الذي خلفه العلّامة السائح وما حواه من مسائل وآراء جديرة بالدراسة فإنني أهيب بروّاد العلم والمعرفة مؤسسات وأفرادا أن يعتنوا بدراسة نتاجه العلمي وتراثه المعرفي.
2) الاهتمام بالمؤتمرات العلمية التي تُعنى بإبراز جهود العلماء الليبيين لإظهار نتاجهم العلمي وتراثهم المعرفي، وتوجيه طلبة العلم للاعتناء بهم والكتابة عنهم في رسائل الدكتوراه والماجستير ومشاريع التخرج.
3) فتح قنوات الحوار بين المذاهب الإسلامية من صوفية وغيرهم وبث روح الحوار بينهم والاحتكام في ذلك إلى ما ورد في صريح الشرع وصحيح العقل.
4) التأكيد على تزكية النفوس وتعزيز معاني الزهد والإيثار في المجتمع لاسيما ونحن في زمان طغت فيه الماديات والتكالب على الدنيا.

المصادر والمراجع:

1. أحمد عجيبة، إيقاظ الهمم في شرح الحكم، (دار الإيمان –دمشق).
2. إحسان إلهي ظهير الباكستاني، التَّصَوُّفُ؛ المنشَأ وَالمَصَادر، (باكستان-لاهور، إدارة ترجمان السنة،
3. إجناس جولد تسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، تحقيق: محمد يوسف موسى، عبد العزيز عبد الحق، علي حسن عبد القادر، (دار الكاتب المصري، الطبعة الأولى 1946).
4. ابن تيمية؛ أحمد بن عبد الحليم: مجموع الفتاوى، (مطبعة فضالة بالمغرب).
5. ابن الجوزي؛ جمال الدين أبي الفرج: تلبيس إبليس، عني بتصحيحه والتعليق عليه بعض علماء الأزهر، (إدارة الطباعة المنيرية، الطبعة الثانية).
6. حسين؛ السائح علي، لمحات من التصوف وتاريخه، (دار الكتب الوطنية بنغازي-ليبيا، الطبعة الأولى 2009).
7. حسين؛ السائح علي، مدخل الدراسات القرآنية، (دار الكتب الوطنية بنغازي-ليبيا، الطبعة الأولى 2009).
8. السهروردي: عبد القاهر بن عبد الله، عوارف المعارف، (دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة الثانية 1403 هـ).
9. الشاطبي، إبراهيم بن موسى، الاعتصام، الجزء الثاني، تحقيق ودراسة: د. سعد بن عبد الله آل حميد، (دار ابن الجوزي للنشر التوزيع، المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، 1429 هـ - 2008).
10. أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى زروق الفاسي البُرْنُسي: قواعد التصوف، تحقيق: عبد المجيد خيالي، منشورات محمد علي بيوضون، (دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ، الطبعة الثانية، 2005).
11. ابن قيّم الجوزية؛ أبوعبدالله محمد بن أبي بكر: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، تحقيق: الشيخ محمد حامد الفقي، (دار المعرفة-بيروت، الطبعة الثانية 1975).
12. نخبة من الباحثين، الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي (لا ط، لا ت).